



بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
إبراهيم سمرة





تَخْتَلِفُ الْفُتُوحَاتُ الإِسْلامِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِقَارَّةِ أَفْرِيقْيَا ، عَنْ أَيَّةِ فُتُوحَاتٍ قَامَ بِهَا الْقُوَّادُ الْمُسْلِمُونَ ، فِي أَنْحَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْعَالَمِ . . فَهَذِهِ الْفُتُوحَاتُ حَدَثَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَفِي فَتَرَاتٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ حِينًا ، مُتَقَارِبَةٍ أَحْيَانًا ، كَمَا أَنَّهَا تَمَّتْ عَلَى يَدِ أَكْثَرَ مِنْ قَائِدٍ إِسْلامِيٍّ عَظِيمٍ .

وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَتِمُّ فِيهَا فَتْحُ هَذِهِ الْبِلادِ ، كَانَ يَعْقُبُهَا فِتَنٌ وَثَوَرَاتٌ مِنَ الْبَرْبَرِ - سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلادِ - بِمُجَرَّدِ انْسِحَابِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ، وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْبِلادِ يَعُودُونَ إِلَى وَثَنِيَّتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى ، مِمَّا يَضْطَرُّ الْقُوَّادَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعَادَةِ الْفَتْحِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الأَمْرُ أَخِيرًا لِلْمُسْلِمِينَ وَتَمَكَّنَ الإِسْلامُ مِنْ قُلُوبِ هَؤُلاءِ الْبَرْبَرِ .





وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَوَّلَ الْفَاتِحِينَ لِبِلَادِ الْقَارَّةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَكَانَ قَائِدًا إِسْلَامِيًّا يَتَّصِفُ بِالْخِبْرَةِ وَالدَّهَاءِ ، فِي الشُّئُونِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ حَاذِقًا بِالْفِطْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ .

فَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ مِصْرَ ، وَاسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ فِيهَا ، فَنَشَرَ الْإِسْلَامَ وَرَفَعَ رَايَتَهُ عَالِيَةً خَفَّاقَةً فَوْقَ رُبُوعِهَا ، بَرَزَتْ شَخْصِيَّتُهُ الْقَوِيَّةُ ، وَصَارَ مَوْضِعَ ثِقَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَى فَتْحِ بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الْقَارَّةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَنَشْرِ الْإِسْلَامِ فِيهَا .





سارَ عَمْرٌو في جَيْشٍ مِنَ الْفُرْسانِ (راكِبي الْخَيْلِ) حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ «بَرْقَةَ» وَفَتَحَها ، وَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِها عَلَى جِزْيَةٍ يُؤَدُّونَها إِلَيْهِ .

ثُمَّ سارَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ «طَرابُلُسَ» عَلَى شاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، وَنَزَلَ عَلَى قُبَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُشْرِفُ عَلَى شَرْقِ الإِقْلِيمِ ، وَظَلَّ يُحاصِرُ الْمِنْطَقَةَ لِمُدَّةِ شَهْرٍ ، دُونَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ لَهُ .



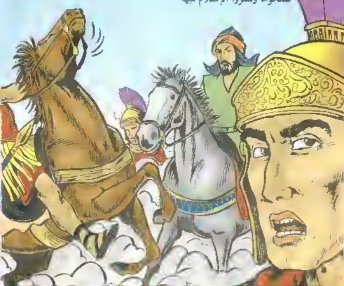
وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنْ عَسْكَرِ عَمْرٍو لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا ابْتَعَدُوا عَنِ الْمُعَسْكَرِ ، وَأَصَابَهُمُ الْحَرُّ وَالتَّعَبُ الشَّدِيدُ ، جَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّذِي يَقَعُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مُبَاشَرَةً فَاكْتَشَفُوا سُفُنَ الرُّومِ الرَّاسِيَةَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَقَدْ غَاصَ عَنْهَا الْمَاءُ ، نَتِيجَةَ حَرَكَةِ جَزْرِ الْبَحْرِ .



وفى الْحَالِ دخل هؤُلاءِ الرِّجالُ إلى الْمدينة فى غفْلة مِنْ أهْلِها ، الَّذين كانُوا يسْترِيحُونَ مِنْ عناءِ الْحرْ ، ثُمَّ وصلُوا إلى كَنِيسةِ الْمدينة ، فصعدُوا فوْقها ، وأَخذُوا يُكَبِّرُون .

فـزِعَ الرُّومُ فـزعًـا شـديدًا ، وهربُوا إلى بيُوتِهِمْ ، ظنًّا منْهُمْ أنَّ جيْش الْمُسْلمين قدْ دخلَ الْمدينة ، وبهذه الْحيلة تمكَّنَ جيْشُ عمْرو مِن الدُّخُولِ إلى الْمدينة ، واحْتلالِها .

ثُمَّ أَخذَ يُجرِّدُ الْحمْلاتِ منْ فرْسانه إلى الْبُلْدانِ الْمُجاورة ، ففتحُوها ونشرُوا الإسْلام فيها



بعدَ ذلكَ كتبَ عَمْرُو بْنُ الْعاصِ ، إلى عُمرَ بْنِ الْخطَّابِ ، يستأذنُه فى مدِّ الْفتحِ الإسْلامىِّ إلى بقيَّةِ بُلْدانِ القارَّةِ الأفْريقيَّةِ ، فنهاهُ عُمَرُ عنْ ذلكَ . فما كانَ منْ عمْرٍو إلا أنَّهُ أطاعَ طاعةً كاملةً ، ورجعَ بجيْشِهِ إلى مصْرَ ، بعْدَ أنْ تركَ عُقْبةَ بْنَ نافعٍ فى عددٍ منَ الْمُسْلمينَ هُناكَ .



فِي عَهْدِ وِلَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ، تَوَلَّى عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ ، حُكْمَ مِصْرَ ، وَطَلَبَ مِنْ عُثْمَانَ مَدَدًا لِتَوَجُّهِ الْفَتْحِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ ، فَجَهَّزَ لَهُ عُثْمَانُ جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ (عِدَّةُ الْجَيْشِ ٤آلاف فارس و ٨٠٠ راجل) وَأَعَانَهُمْ عُثْمَانُ بِأَلْفٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ ، حَتَّى يَصِلُوا مِصْرَ ، فَيَتَوَلَّى عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ قِيَادَتَهُمْ .



وفى مصرَ يستقبلُهُمْ عبدُ اللهِ بنُ أبى السَّرْح ، ويضمُّ إلى الجيشِ جيشًا مِنْ عندِهِ ، ليُصبحَ العددُ الكلّيُّ للجيشِ عشرةَ آلافِ مُقاتلٍ . ثُمَّ يزحفُ الجيشُ بحذاءِ شاطئِ البحرِ المتوسِّطِ ، حتى يصلَ إلى برقةَ ، وهناك يُقابلُهُمْ عُقبةُ بنُ نافعٍ فيمَنْ معهُ من المسلمين . ثُمَّ يزحفُ الجميعُ نحوَ طرابُلُسَ ، التى كانَ الرُّومُ البيزنطيُّون قدْ سيطرُوا عليْها بعدَ عودةِ عمْرِو ابنِ العاصِ إلى مصرَ وتحدُثُ معاركُ حاميةٌ بيْنَ جيشِ المسلمين ، وجيشِ الرُّومِ ، وينهزمُ الرُّومُ أمامهُمْ ، وبذلك يسْتردُّ المسلمُونَ طرابُلُسَ ثانيةً ، وتصبحُ إقليمُ ليبيا كلُّهُ تحتَ سيطرةِ المسلمينَ مرةً أُخرى .



ثُمَّ يَتَقَدَّمُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى السَّرْحِ بِالْجَيْشِ ، فَيَصِلُونَ إِلى حُدُودِ تُونُسَ (وَكَانَتْ تُونُسُ فِى ذَلِكَ الْوَقْتِ شَأْنُهَا شَأْنُ بُلْدَانِ حُدُودِ الشَّمَالِ الأَفْرِيقِىِّ) وَاقِعَةً تَحْتَ سَيْطَرَةِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ

وَكَانَ سُكَّانُ هذِهِ الْمَنَاطِقِ كُلُّهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَكَانَ يَحْكُمُهُمْ مَلِكٌ يُدْعَى جُرْجِير

وَيطْرُقُ الْمُسْلِمُون بقبضاتهِمُ الْقَوِيّةِ أبْوابَ الْملكِ جُرْجير ، الَّذى يُطلُّ عَلَيْهِمْ منْ مَمْلَكته ، سائلا عنْ مقْصد هؤلاء الْقوم ، فيقُولُون لَهُ : إنّهُمْ يدْعُونَهُ إلى الدُّخُول فى الدّينِ الّذى دخل فيه أهْلُ مصْر ، أوْ دفع الجزْيَة عنْ يد وهُو صاغرٌ .

ولَكنّ جُرْجير يعْتبرُهَا إهانةً تَلْحَقُ به كملكٍ عظيمٍ يحْكُمُ كُلَّ هذه البلاد ، الّتى تمْتدُّ إلى حُدُود الْمُحيط الأطْلسىّ .





وأخيرًا كانت الحربُ . حشد جرجيرُ جيشًا من الرُّوم والبَرْبر قوامُهُ مائةٌ وعشرونَ ألفًا ، التقى بجيشِ المُسْلمين القليلِ العددِ والعُدَّةِ ، واقتتلوا قتالاً شديدًا عندَ مدينةِ «سُبَيْطلةَ» مقرِّ الملكِ جرجير .

في هذه الأثناء انقطعَ خبرُ جيشِ المُسْلمين عن الخليفة عثمانَ بنِ عفَّان ، فيُرسلُ إليهم عبدَ الله بنَ الزُّبير في جماعةٍ منْ أصحابه ، ليأتوهُ بأخبارِهمْ .

فلمَّا وصلُوا إلى مُعسكرِ المُسْلمين ، علا التَّكبيرُ والتَّهليلُ ، ممَّا جعلَ الخوفَ والفزعَ يدبَّان في قلوبِ عساكرِ الملكِ جرجير . ولمَّا سألَ جُرْجير رجالَهُ عنِ الخبرِ ، أخبَرُوهُ بأنَّ جيشَ المُسْلمين قدْ جاءهُ مددٌ عظيمٌ فأوهنَ ذلكَ منْ عزيمةِ جرجير .





ورأى عَبْدُ الله بْنُ الزُّبيرِ أنَّ قِتَالَ الْمُسْلمين يستمرُّ كُلَّ يَوْمٍ مُنْذُ الصَّبَاحِ الْبَاكرِ ، فإذا أُذِّنَ للظُّهرِ عادُوا إلى خيامهِمْ ، فلا يتجدَّدُ الْقتالُ إلا في صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالي

وذاتَ يَوْمٍ كانَ عَبْدُ الله بْنُ الزُّبيرِ يُقَاتِلُ في صُفُوفِ الْمُسْلمينَ ، فَلَمْ يرَ عَبْدَ الله بْنَ أبي السَّرْحِ ، فلمَّا سألَ عَنْ سببِ اخْتفائه ، عرفَ أنَّ جُرْجيرَ ، قدْ نادَى بَيْنَ جُنُودِهِ بأنَّ مَنْ قَتلَ عَبْدَ الله بْنَ أبي السَّرْحِ نَالَ جائزةً عظيمةً ، علاوةً على التَّزوُّجِ مِنَ ابْنةِ جُرْجيرَ ، لذلكَ فقدْ آثرَ عَبْدُ الله بْنُ أبي السـ أنْ يُديرَ الْمَعْركةَ منْ خَلْفِ الصُّفُوفِ ، حتَّى لا يُؤثِّرَ اسْتشْهادُهُ عزيمَةِ جُنُودِهِ ، وثَباتِهِمْ ضدَّ جَيْشِ جُرْجيرَ .

وفى الْيَوْمِ التَّالى أشار عَبْدُ الله بْنُ الزُّبَيْر على عَبْد الله بن أبى السَّرْح ، بأنْ يُقابل الحيلة بمِثْلها وأنْ يُنادى فى جُنوده أيضًا بأنْ مَنْ قَتل جُرْجير ، فلَهُ جائزةٌ ماليَّةٌ عظيمَةٌ ، علاوةً على تولِّى حُكْم الْبلاد الَّتى كانَ يحْكُمُها جُرْجير .

فلمَّا فعل ذلكَ ، خاف جُرْجير خوْفًا شديدًا منْ جُنُود الْمُسْلمين برغْمِ قلَّة عددهمْ .

وَلَمَّا طَالَ قِتَالُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ جُنُودِ جُرْجِير ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ سِجَالًا ، لَجَأَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى حِيلَةٍ جَدِيدَةٍ ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَجِّلَ بِنِهَايَةِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ ، فَقَدْ أَشَارَ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ ، بِأَنْ يَتْرُكَ جَمَاعَةً مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي خِيَامِهِمْ ، يَسْتَرِيحُونَ وَيَتَأَهَّبُونَ لِمُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَنْفِدَ الْبَرْبَرُ قُوَّتَهُمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ الصَّبَاحِ ، وَحَتَّى وَقْتِ الظَّهِيرَةِ ، فَإِذَا أَرَادُوا فَضَّ الِاشْتِبَاكِ وَالِانْصِرَافَ لِلرَّاحَةِ فِي مُعَسْكَرِهِمْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ .





وفى الْيَوْمِ التَّالى ، مَكَثَ فَرِيقٌ مِنْ شُجْعَانِ الْمُسْلمين فى خيامهمْ للرَّاحة ، وَخُيُولُهُمْ مُسْرجَةٌ ، اسْتعْدادًا للانْطلاق فى أيَّة لحْظة . فلمَّا أُذِّنَ للظُّهْر ، وأرادَ جُنُودُ جُرْجير أنْ يَهُمُّوا بالانْصراف لمْ يُمَكِّنْهُمْ هؤلاءِ الأبْطَالِ مِنْ ذلكَ ، وانْطلَقَ عَبْدُ الله بْنُ الزُّبَيْرِ مَعَ مَنْ معهُ من فُرْسَانِ الْمُسْلمينَ وحملُوا على الْبرْبَر حمْلَةَ رَجُلٍ وَاحد .

لَمْ يَتَمَكَّنِ الْبَرْبَرُ مِنْ صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ الْمُفَاجِئِ ، وَحَدَثَ ارْتِبَاكٌ عَظِيمٌ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَالَّتِي اخْتَلَّ نِظَامُهَا وَقُتِلَ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ الْبَرْبَرِ وَقُوَّادِهِمْ ، بَيْنَمَا لَاذَ الْبَاقُونَ بِالْفِرَارِ ، أَوْ وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ .

بَعْدَ ذَلِكَ نَازَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْمَلِكَ جُرْجِيرَ ، وَبَعْدَ صَوْلَاتٍ وَجَوْلَاتٍ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وَأُخِذَتِ ابْنَةُ جُرْجِيرَ أَسِيرَةً مَعَ أَسْرَى الْبَرْبَرِ .

وَهَكَذَا تَمَكَّنَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حِصَارِ الْمَدِينَةِ ، وَفَتْحِهَا . ثُمَّ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ أُصُولَ الدِّينِ الْجَدِيدِ .

ثُمَّ . . .





يُرْسِلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ جُيُوشَهُ فِي الْبِلادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَيَتِمُّ فَتْحُ بَقِيَّةِ حُدُودِ السَّاحِلِ الأَفْرِيقِيِّ ، وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ حَاكِمًا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ يَعْقِدَ مَعَهُمْ صُلْحًا ، وَيَأْخُذَ الْجِزْيَةَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِ مُنْتَصِرًا ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى .

وَهَكَذَا تُشْرِقُ شَمْسُ الإِسْلامِ عَلَى بُقْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الأَرْضِ ، هِيَ شَمَالُ أَفْرِيقْيَا .

